أحمد راتب النَّفَّاخ وجهوده في خدمة التراث

□ د. سمر روحي الفيصل*

أحمد راتب النفاخ (١٣٤٦/ ١٩٢٧ – ١٤١٢ / ١٩٩٢)

علاّمة الشّام، لغويّ وباحث موسوعيّ. ولد في دمشق (سورية)، في أسرة عُرفت بالصّلاح والتّقوى. التحق – وهو في الرّابعة أو الخامسة من عمره – بكتّاب قرب مسجد الشّيخ محيي الدّين بن عربيّ، ثم في مدرسة (الصّاحبة) الابتدائيّة، فثانويّة (جودة الهاشميّ). وكان فيها كلّها مجلّياً طُلَعة، نظم الشّعر وهو يافع، وعارض في بداية مرحلته الثّانويّة قصيدة مهيار الدّيلميّ، فلفت إليه الأنظار، وخصّه أساتذته بالتّقدير والتّشجيع. دخل قسم اللّغة العربيّة في جامعة دمشق، وتخرّج فيه حاملاً الإجازة عام ١٩٥٠، ونال شهادة أهليّة التّعليم الثّانويّ من كلّيّة التّربية عام ١٩٥١، وعُيِّن مدرِّساً للغة العربيّة في منطقة حوران جنوبي سورية. ثم استقبله قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق معيداً فيه بين ١٩٥٣ – ١٩٥٥، حيث أوفدته الجامعة إلى القاهرة لتحضير الماجستير والدّكتوراه. فحصل على الماجستير عام ١٩٥٨ عن الشّاعر ابن الدُّمينة، وسجّل رسالة الدّكتوراه عن علاقة النّحو بالقراءات القرآنيّة، وأنجز قدراً كبيراً منها، ولكنّه زهد بالألقاب وعاد إلى دمشق دون أن يكمل رسالته، ولم يقبل أن ينال الدّكتوراه في الفصول التي أنجزها من هذه الرّسالة على الرّغم من إلحاح المشرف، وهو الدّكتور شوقي ضيف، على ذلك، وسعيه لدى أصدقاء النّفّاخ

❖ عضو اتحاد الكتاب العرب، جمعية البحوث والدراسات.

إلى أن يغروه بالتّنازل عن نشدان الكمال مؤقّتاً، ويدفعوه إلى زيارة القاهرة مرّة واحدة ليس غير لحضور المناقشة وتقديم الشّهادة له. عاد النّفّاخ مدرِّساً إلى قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق، وبقي يدرِّس فيه سبعة عشر عاماً (١٩٦٢ – ١٩٧٩)، انتخب في أثنائها (عام ١٩٧٦) عضواً في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق وعضواً في المجمع العلميّ الهنديّ. وانصرف بين ١٩٧٩ – ١٩٩٢ إلى العمل في مجمع اللّغة العربيّة رئيساً للمقرّرين وعضواً في لجنة الأصول ولجنة المجلّة والمطبوعات.

اتصف النّفّاخ بالذّكاء المتوقّد، والنّهم في الإقبال على العلم، حتّى إنّه اشتهر بلقب علاّمة الشام وحجّتها في القراءات والنّحو والبلاغة واللّغة وفقه النّصوص العربيّة القديمة. كان حاضر البديهة، حريصاً على الاقتداء بالسّلف الصّالح، محبّاً للغة القرآن، عاملاً على إفادة الآخرين، شديداً على المتحذلقين الذين يدّعون المعرفة بتراث الأمّة العربيّة الإسلاميّة، كريماً لا يبخل على النّاس بالعلم الذي يملكه وبالعون الذي يستطيع تقديمه، صارماً في الحقّ، شاعراً ذا نزعة صوفيّة، ينظم الشّعر دون أن يقرنه باسمه، وفيّاً لأساتذته محمود محمّد شاكر وشوقي ضيف وعزّ الدّين التّنوخيّ وعبد العزيز الميمنيّ الرّاجكوتيّ ومحمّد البزم وأمجد الطّرابلسيّ، حفيّاً بأصدقائه عبد الهادي هاشم وشاكر الفحّام وحاتم الضامن، برّاً بأهله. فتح منْزله لطالبي العلم وشداته من الباحثين، وبذل للوافدين إليه مكتبته العامرة بنفائس الكتب ونوادر المخطوطات. لم يبخل على أحد بعلم؛ لأنّه كان مؤمناً بأنّ العلم لا يُكْنَز، وأنّ الأمّة العربيّة الإسلاميّة لن تنمو وتستعيد أمجادها إذا لم ينهض أبناؤها بواجبهم في صون تراثهم ورعاية لغتهم عنوان هويّتهم. ولعلّ قسوته وحدّة طبعه عائدتان إلى أنّه كان يرى الأدعياء يسوسون النّاس ويعيثون فساداً باللّغة والتّراث. وهؤلاء لا يُؤخَذون باللّين والتّسامح لأنّهم يعبثون بمصائر الأمّة العربيّة. ومن ثَمَّ راح يقسو عليهم، ويندّد بهم، ويصوِّب ما يكتبونه وما يحقّقونه من التّراث العربيّ، فنسبوه إلى القسوة وحدّة الطبع بدلاً من أن يُقدّروا إخلاصه وعِلْمه، وراحوا يكيدون له حتّى أخرجوه من جامعة دمشق، فتفرّغ للعمل المجمعيّ وهو أقرب إلى اليأس، وقَصَر حياته على التّنقُّل بين منْزله وعمله في مجمع اللّغة العربيّة، يخرج من أحدهما إلى الآخر حتّى توفي صباح يوم الجمعة (١١/٨/١٤١٢ – ١٤/٢/١٩٩٢) وهو يقرأ القرآن.

كان النّفّاخ جبلاً من جبال العلم كما وصفه الدّكتور شاكر الفحّام، ونمطاً فريداً بين معاصريه. يتكلّم في حياته اليوميّة باللّغة العربيّة الفصيحة، ويُغري الآخرين باستعمالها في أحاديثهم. خلقه الله معلِّماً يقرأ ويُدرِّس دون أن يهتم بنشر إنتاجه في كتب مطبوعة. عرفتُه كما عرفه آلاف من طلابه صارماً في العلم، قويّاً في الحقّ، صابراً على المكائد والحسّاد، تتدفّق المعرفة على لسانه وكأنّه يغرف من كتاب مفتوح، حتّى إنّ المستمع إليه يعجب من إحاطته بعلوم العربيّة، وقدرته على النّفاذ إلى أغوارها، والتّدقيق في مظانّها

ومذاهب رجالاتها. ولكنّه بقي طَوَال حياته زاهداً في طباعة إنتاجه، ومن ثَمَّ لم تكن كتبه القليلة معبِّرة عن معارفه ومهاراته كلّها، ولكنّها كتب غزيرة الفائدة، باقية على الدّهر نموذجاً للدّرس اللّغويّ والعناية بالتّراث العربيّ. تُضاف إليها مقالاته وتعليقاته المنشورة في مجلّة اللّغة العربيّة بدمشق، ومجلّة معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة، ومجلّة العرب بالسّعوديّة. كما تُضاف إليها المخطوطات التي حقّقها ولم ينشرها كمعاني القرآن للأخفش، ومعاني القراءات للأزهريّ، وطبقات القرّاء للذّهبيّ، والشّيرازيّات والعسكريّات لأبي علي الفارسيّ، وجمال القرّاء للسّخاويّ. أمّا كتبه المطبوعة فهي:

١ – النصوص الأدبية – كتاب جامعيّ لطلاب شهادة الثّقافة العامّة، صدر ضمن مطبوعات جامعة دمشق عام ١٩٥٥ بإشراف أحمد راتب النّفّاخ.

٢ – ديوان ابن الدّمينة، صنعة أبي العبّاس ثعلب ومحمّد بن حبيب – القاهرة ١٩٥٩. وهو تحقيق دقيق لشعر ابن الدّمينة مصدَّر بمقدّمة وافية عن حياته ونسبه وتاريخ مقتله. وهذا الدّيوان جزء من رسالة الماجستير التي نالها النّفّاخ من جامعة القاهرة عام ١٩٥٨.

٣ – الاتباع لأبي الطيّب اللّغويّ، تحقيق عزّ الدّين التّنوخيّ، منشورات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق عام ١٩٦١. وكان التّنوخيّ حقّق هذا الكتاب على نسخة أصاب الخرم أولها فذهب بخطبة الكتاب. وعثر بعد طباعة الكتاب عام ١٩٦١ على مخطوطة ثانية غير مخرومة، فنشر في مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق خطبة كتاب الاتباع منها. وحين رغب المجمع في إعادة طباعة الكتاب أضاف الخطبة إليه مع ملاحظات النّفّاخ واستدراكاته على التّحقيق.

٤ – مختارات من الشّعر الجاهليّ – اختيارات وتعليقات – دمشق ١٩٦٦. وهذا الكتاب مختارات من عيون الشّعر الجاهليّ، تُعد نموذجاً للاختيار والتّحقيق العلميّ الدّقيق. وقد جعل النّفّاخ هذه المختارات متناً لتدريس الشّعر الجاهليّ في السّنة الأولى من قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق ابتداءً من عام ١٩٦٦.

٥ – فهرس شواهد سيبويه – بيروت ١٩٧٠. نسّق في هذا الكتاب ما ورد في كتاب سيبويه من شواهد القرآن، وشواهد الحديث (وهي قليلة)، والشّواهد الشّعريّة (وهي كثيرة في نحو من ١٠٤٧ بيت)، فقرَّب كتاب سيبويه إلى النّاس والاختصاصيّين، ودلّهم على مواضع مسائله، ومهّد لهم بتعليقاته سبل الإفادة منه.

٦ – القوافي لأبي الحسن الأخفش – تحقيق – بيروت ١٩٧٤. بذل النّفّاخ جهداً كبيراً في تحقيق هذا

الكتاب حتّى أصبح نموذجاً يُحتذى في تحقيق التّراث العربيّ. وكان أحبّ كتبه إليه وآثرها عنده. وهو محقَّق عن نسخة يتيمة.

٧ – شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف لأبي أحمد العسكريّ – تحقيق الدّكتور السّيّد محمّد يوسف – الجزء الأول – دمشق ١٩٨١. وقد وُكِل إلى النّفّاخ أمر مراجعة التّحقيق، فأضاف إليه فوائد جمّة طالت في الأبواب الأخيرة ما دعا إلى جعل الكتاب في قسمين، طُبع القسم الأوّل منهما عام ١٩٨١، ولم يصدر القسم الثّاني بعد.

حول النفّاخ:

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (٢١١/٥٣ - ٢٢٠) – عبد الهادي هاشم (١٩٧٨)/ معجم المؤلفين السوريين (٥٢٠) – عبد القادر عياش (١٩٨٥)/ جريدة الأسبوع الأدبي (العدد ٢٤٢) د. سمر روحي الفيصل (١٩٩٠)/ جريدة الدستور الأردنية (١٩٩٢/٢/١٦) – زهير الشاويش/ جريدة البعث السورية (١٩٩٢/٢/٢٧) – د. عبد الكريم الأشتر/ جريدة اللواء الأردنية (١٩٩٢/٤/٨) – أحمد العلاونة/ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (٥٢٣/٦٧ -٥٣٦) – د. شاكر الفحّام (١٩٩٢)/ جريدة الرباط المغربية (٩/٢٣ / ١٩٩٢) – عبد الله الطنطاوي/ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (٥٣٧/٦٧ -٥٤٠) – د. عادل العوا (١٩٩٢)/ ذيل الأعلام (٢٦ -٢٧) – أحمد العلاونة (١٩٩٨).

